غابة الذل

الكاتب : محمد حسن السوري

التاريخ : 18 ديسمبر 2011 م

المشاهدات : 3979

لقد فعلت الشتاء فعلها بالحديقة، فكانت أكثر الأشجار جرداء، مررت بقربها والهواء البارد يقص المسمار.

كان بجانب سورها بعض الباعة قد افترشوا الأرض ويتحدون الزمهرير، عرضوا بضاعة قليلة لو بيعت فربحها لا يسمن، ولكن قد يغني من الجوع.

اقتربت لابتاع من أحدهم، سألته: ألا تشعر بالبرد؟ رد بصوت مبحوح يظهر مرضاً وتجلداً: إذا لم أعمل فلن أعود لبناتي بطعام، لقد تخرجت من المعهد بمعدل عال، وأنا غير مسنود، حلمي بالوظيفة طار لمن من هو أدنى معدلاً بكثير.

قطع حديثنا صوت الباعة يصرخون على صاحبنا: أبو أحمد لقد جاؤوا.

حاول المسكين المريض أن يحمل بضاعته بعيداً، ولكن كانت سيارة البلدية التابعة لدولة الصمود قد اقتحمت المكان، ونزل منها بضعة أشاوس من أبطال الممانعة، وتراكضوا ينهبون بضاعة أبي أحمد، وكأنها غنيمة من الصهاينة محتلي الجولان.

توسل أبو أحمد إليهم بصوته الضعيف دون جدوى، فقد كان الضابط ينهره ويشتمه بشتائم لا يجيدها إلا أمثاله القادة أو القوادين.

وقف أبو أحمد منزوياً يتفجر أسى وقهراً، كاد يختنق، فأخرج بخاخة للربو تبقيه في حياة ليست بحياة، لقد أهين المسكين ومرغت كرامته بالتراب، ولكن الأصعب عنده خسارته لبضاعته، فكيف سيواجه بناته عندما يتراكضن نحوه جائعات وهو خالي اليدين.

تجمع الباعة حوله يواسونه، وفهمت منهم أن كل واحد منهم مجبر أن يدفع رشوة يومية للضابط يجبيها موفد من قبله تعادل نصف تعبه تقريباً، ولكن أبا أحمد لم يدفع اليوم لأنه لم يسترزق، فصوته المبحوح هذا اليوم لم يساعده في الترويج لبضاعته، لقد أسقطه المرض فريسة لذئاب الممانعة في هذا البرد القارس.

وعرفت أيضاً أن أحدهم قام بالرد على إهانة الضابط في أحد الأيام فتداعوا إليه كما يتداعى الذباب إلى القصعة، فأوسعوه ضرباً وإذلالاً، وصبوا كل بذاءة في الدنيا على (الأخونجي الخائن) ثم أخذوه ولم يعد.

وعرفت أن هذا الضابط اللص الذي يؤجر أرض الوطن، يعمل جهده لمنع رخصة العمل النظامية لهؤلاء المساكين ليستأثر بسرقتهم، ولو منحوا الرخصة فبرشوة وشروط من الإذلال أهمها أن تعمل مخبراً وجاسوساً على أبناء الوطن.

ولكن أفظع ما عرفته أن هذا البائع المسكين ضحية اليوم هو ابن شهيد على ثرى الجولان، وأن الضابط من قرية بائع الجولان الخالد، باني غابة الذل.

بعد يومين مررت من نفس المكان، تعمدت أن أرى أبا أحمد، وجدت الباعة، وكان مكانه خالياً، وعلى السور ورقة نعوة باسم (أبو أحمد).

وتحت النعوة تعليق بخط اليد: استراح ..... وبالأسفل: يلعن روحك يا حافظ.

المصدر: موقع المندسة السورية

المصادر: